أنا ... وتوفيق الحكيم

وجهاً لوجه ...

للأستاذ دريني خشبة

ذهبت لأسلم على الأستاذ الزيات بعد عودته إلى القاهرة فوجدت إحدى الأديبات قد سبقتني إلى هذا الفضل ... وهذا خبر لا يهم القراء في شيء ...

إنما الذي يهم القراء حقاً أنني لم أكد أستقر في مكاني حتى فتح الباب ودخل الأستاذ توفيق الحكيم ... فهل كنا على ميعاد ؟

وعندما كنت أكتب فصولي في « شهرزاد » وأحلام « شهرزاد » أراد الأستاذ الزيات أن يعرفني إلى الأستاذ الحكيم ... فاعتذرت ... وقلت له حين سألني عن السبب : حتى أفرغ من هذه القضية بين الحكيم وبين طه حسين ... وذلك لكي تصدر فصولي كلها بروح واحد ...

ثم مضت الأيام ، ولم أعرف الأستاذ الحكيم إلا من كتبه ، ولم يعرفني الأستاذ الحكيم إلا من مقالاتي ... حتى كان هذا اللقاء المفاجئ !

والعجيب أننا تصالحنا في لحظة خاطفة ... ولم يكن هذا الصلح على حسابي ... بل كان على حساب الأستاذ الحكيم الذي عاهدني وعاهد الأستاذ الزيات ألا يكتب كلمة واحدة ضد المرأة ... ولقد رثيت له ورحمته وهو يواثقنا على ذلك ، لأنه كان بحضرة الأديبة المهذبة فلك طرزي ، فلم يكن في مستطاعه أن يدافع في قضيته بشيء

ثم دار الكلام في موضوعات شتى ، حتى وصلنا إلى آخر كتب توفيق الحكيم ، (زهرة العمر) ، فلم أقطع فيه برأي لأنني لم أكن قرأته ، بل لم أكن شهدته ... وذلك أننا معشر الـ ... أدباء (والسلام !) نفضل أن نشتري بنقودنا خبزاً لأولادنا هذه الأيام ... على أن نشتري كتباً لأذهاننا ، لأننا نجيد الاحتيال لقراءة هذه الكتب ، حتى تسكت هذه الحرب فنشتريها كما يشتريها الأغنياء والعظماء ، بل نعود كما كنا أحسن زبائن المكتبات

وكان الأستاذ الحكيم قد أهدى (زهرة العمر) إلى الأستاذ الزيات ولم يكن قرأه بعد ، فوجدت من حسن الاحتيال أن أدعي أنني سريع القراءة جداً ، وأنني أستطيع أن أفرغ من الكتاب قبل أن ينتهي الزيات من (تفتيح) صفحاته ... فوافق الرجل ... بشرط ! أن أكتب عن الكتاب وطبعاً عن صاحب الكتاب ! ... كل هذا والأستاذ الحكيم

وإني لأهوى كلَّ من قيل عاشقٌ
وزداد في عيني جلالا ويَشْرُفُ
وما العشق في الإنسان إلا فضيلةٌ
تُدمِّث من أخلاقه وتُلطِّف
يعظِّم من يهوى ويطلب قربه فتكثر آدابٌ له وتظرُّف

وهو يرى الموت في العشق حياة ، كأن يقول :

ما لَهُ أصبح عني معرضـاً
تحت ذا الأعراض من مولاي شيّ
أنا من قد مِتُّ في العشق به هنّئوني : ميِّت العشاق حيّ

وغزل البهاء غاية في الرقة والعذوبة واللطف ، وما أحلاه وهو يصور غيرته على من يهواه :

وأنزّه اسمك أن تمرّ حروفه من غيرتي بمسامع الجلاّس
فأقول بعض الناس عنك كناية
خوف الوشاة وأنت كل الناس
وأغار إن هبَّ النسيم لأنه مُغرًى يهزُّ قوامك الميّاس
ويروعني ساقي المدام إذا بدا فأظن خدك مُشرقاً في الكاس

وما ورد «المطمع المتمنع» في الشعر العربي بأكثر مما ورد في شعر البهاء . أليس هو الذي يقول :

سيدي قلبيَ عندكْ سيدي أوحشت عبدكْ
سيدي قل لي وحدثني متى تنجز وعدكْ
أترى تذكر عهدي مثل ما أحفظ ودك
قم بنا إن شئت عندي أو أكن إن شئت عندك
أنا في داريَ وحدي فتفضَّلْ أنت وحدك

وأشعار البهاء تفيض بالمطارحات الغرامية ، مع خفة الدم ، ولطف الروح ، وأنا أرجو أن يعفيني المتسابقون من إيضاح هذه الناحية ، لأنها أوضح من أن تحتاج إلى إيضاح

ومن سمع الغناء بغير قلب ولم يطرب فلا يَلُم المغنّي

وقد غنّى البهاء وأجاد ، فاسمعوه بالقلوب .

زكي مبارك

obeikandi.com

يسمع وكأنه لا يعلم شيئاً . ثم خضنا فى المسرح وفى التمثيل ، وسألته لماذا لا يؤلف للمسرح المصرى روايات تمثيلية ، فسمعت منه الجواب الذى سمعته من خمسين أو من ستين شاعراً مصرياً وكاتباً مصرياً ... ليس عندنا مسرح ... ويجب ، إذا ألفنا ، أن يكون تأليفنا على نوعين ، فنوع للخاصة ، ونوع للعامة ... نوع للخاصة الذين يسعهم أن يفهموا القطع الخاصة الرفيعة وأن يتذوقوها ، ونوع للعامة الذين لا يسعهم أن يفهموا القطع الخاصة الرفيعة ولا أن يتذوقوها ... هكذا كان جواب الأستاذ الحكيم الذى لم تمض على معاهدة الصلح والسلام والمودة بينى وبينه غير دقائق ... ولقد سكت على هذا الكلام لأنى أردت أن أجعل منه مادة لهذا الحديث ، لأنى لا أحب مطلقاً أن ينعقد السلام بينى وبين هذا الرجل الذى أحبه جداً وأعجب به جداً ، على حساب العامة . لأن تقسيم الجمهور المسرحى إلى خاصة وعامة هو أقتل سلاح نصوبه إلى صدر المسرح الذى نحلم بإنشائه ، وكل محاولة لإنشاء هذا المسرح إن لم تعتمد على العامة — وهذا رأيى وعلىّ تبعته — قبل أن تعتمد على الخاصة ، هى محاولة فاشلة ، بل هى محاولة فيها إثارة لمشكلة الطبقات ، بل هى محاولة للأزراء بسواد الشعب والانتقاص من ملكاته ... على أن الأدب الذى يُكتب للخاصة هو فى رأيى أيضاً أدب لا يمكن أن يمثل أمة ، بل هو أدب لا يمكن أن يمثل الخاصة نفسها ، لأنها خاصة تتألف من عناصر متباينة ، يتعاظل بعضها على بعض ، ويبالغ بعضها فى بز البعض الآخر فى المظاهر الكاذبة التى ربما أخفت وراءها قدراً عظيماً من العقلية المقيدة التى ترسف فى أغلال من الذهب ... وفى وسع الأستاذ توفيق الحكيم أن يقول : إنما أنا أقصد الخاصة المتعلمة ذات المواهب ، وأنا أرد عليه إذن بما قلته مراراً على صفحات هذه المجلة وهو أن التعليم وحده لا يستطيع أن يصنع الحاسة الفنية لشعب ما من الشعوب ، فلقد كان العصر الذهبى للمسرح اليونانى فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد فى زمن لم ترتفع فيه نسبة المتعلمين فى أثينا نفسها عن عشرة أو ستة عشر بالمائة ، وكذلك الحال فى رومة والحال فى انجلترا (فى القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر) حينما كان المسرح الإنجليزى فى أوجه إذ ذاك ، وكان جل اعتماد المسارح اللندنية على الموارد التى تتدفق عليها من طبقات الشعب ، وبالأحرى من سواد الشعب غير المتعلم ... ومن الأمانة فى نقل الحديث أن أذكر ما ذكره الأستاذ توفيق نفسه من أنه إنما يرى هذا الرأى لما لقيته مسرحيته « أهل الكهف » من مصير على يد الفرقة القومية وفى دار الأوبرا الملكية ... لقد قالها الأستاذ توفيق فى شىء يشبه المرارة ... وهو مخطئ فى زعمه هذا ... فأهل الكهف كتبت لتكون من أروع آيات الأدب المصرى الحديث ، وقد أثبتت وجودها بالفعل ، ولسوف تخلد على وجه الزمان قطعة فنية قوية أنشئت للقراءة وللترف الذهنى ، ولم تُنشأ للتمثيل ... والذين أشاروا بإخراجها للمسرح هم الذين كتبوا لها هذا المصير . وبهذه المناسبة أذكر أن الأستاذ توفيق أرسل إلىّ خطاباً يقول فيه :

... وجهتم إلىّ أمس سؤالاً التبس على وهو : لماذا لم أوجه عنايتى إلى المسرح ؟ ولعلكم قصدتم أنى لم أعن بإخراج رواياتى على المسارح ... وهذا حق ... ذلك أن كتابة القصة التمثيلية نفسها والتأليف المسرحى فى ذاته لمن القوالب الأدبية الفنية التى حرصت منذ نحو عشرين عاماً على العناية بها ... ولقد كتبت ونشرت — كما تعلمون — نحو خمس عشرة قصة تمثيلية أو قوامها الحوار الأدبى . وهى (ثم أورد حضرته أسماءها) ... ثم قال ... وكل هذه الروايات التمثيلية منشورة فى كتب مستقلة وفى مجموعتى « مسرحيات توفيق الحكيم » فى مجلدين . أما إذا كان قصدكم معرفة سبب عدم إخراج هذه القصص على المسارح حتى الآن (باستثناء أهل الكهف وسر المنتحرة) ؛ فإن الجدير بالإجابة هم القائمون بأمر مسارحنا ...) وأنا عندما وجهت هذا السؤال إلى الأستاذ كنت أفهم عنه وكان يفهم عنى فى غير لبس ولا عناء . وإذا كان يريد أن يقول لى إنه عُنى بالتأليف للمسرح المصرى فإنى أخالفه مخالفة تامة ، مع أننى من أشد المعجبين بأدبه التمثيلى الذى يخرجه فى الغالب فى شكل حوار لذيذ ممتع ، وهو مع هذه اللذة وذلك الإمتاع لم يخرج عن كونه قصصاً تمثيلياً أنشىء للقراءة ولم ينشأ للمسرح . وعندما أكتب فصلاً آخر أو فصولاً أخرى عن « فن توفيق الحكيم » بوصف هذا الفن ظاهرة هامة من أوضح ظواهر الأدب المصرى الحديث ، فسأفيض فى شرح ما أريد الآن إجماله من الناحية التمثيلية فى أدب هذا الأستاذ العظيم ... هذا الأدب الذى شق

طريقه بسرعة فائقة فى حياة مصر الأدبية الحديثة ، حتى احتل مكانه فى جلالة وبهاء بين الطليعة من أدبائنا الأمجاد

لقد وجهت سؤالى الى الأستاذ وهو يفهم عنى أحسن الفهم ولا داعى مطلقاً إلى القول بأن هـذه القطع الرائعة الخمس عشرة كتبت للمسرح ، لأن الكتابة المسرح شىء آخر غير الكتابة للقراءة المُتْرَفة ، أو القراءة للذة الفنية التي يتقنها توفيق الحكيم إتقاناً عجيباً لا نعرفه لغيره من كتابنا المصريين . وإنى حينما أقول إن الكتابة للمسرح شىء آخر غير الكتابة للقراءة المترفة ، لا أعنى أن ألقى درساً على أحد ، أستغفر الله . بل أعنى أنه يحسن ألا يغالط أحدنا الآخر على هـذا النحو ؛ فلقد سرنى جداً ما ذكره الأستاذ توفيق فى كتابه (زهرة العمر) الذى لم يتسع هذا الفصل للتحدث عنه ، من أنه أخذ يعنى بقراءة (برنرد شو)[1] فى لغته الأصلية ، أى الإنجليزية ، بدلاً من أن ينتظر ترجمته إلى اللغة الفرنسية التى كانت تيسر له قراءة هذا الرجل الذى يعتبر من غير شك (عاهل المسرح الحديث » فى العالم قاطبة ... وسوف يسرنى أكثر أن يكون الأستاذ توفيق قد وازن بين (فن شو) المسرحى وما فى قصصه هو من هذا الفن المسرحى . ولسوف يسرنى أكثر وأكثر أن يكون قد وازن بين (مُثُل شو) العليا ، ومُثُله هو ، تلك المثل التى تمنى بالفن من أجل الفن ، قبل أن تعنى بالفن من أجل الحياة .

هذا . ولست أوصى الأستاذ الحكيم بدراسة إبسن أو بجورنسن من كتاب الدرامة السكندنافيين ، أولئك الكتاب الذين تتلمذ عليهم شو ، ووفقه الله إلى استكمال نقصهم . وذلك أن إبسن مثلاً كان يشخص علل المجتمع الإنسانى وأدواءه ، ثم يكتفى بذلك التشخيص . لم يكن يعنى قط بوصف العلاج الذى يكفل القضاء على تلك العلل ، أما شو ، الذى تشبه كثير من دراماته قصص الحكيم التمثيلية ، من حيث صلاحيتها جداً للقراءة دون صلاحيتها للمسرح ، فكان فى نقده البارع وسخريته اللاذعة مشخصاً ومعالجاً فى وقت معاً

أما لماذا أوصى الأستاذ الحكيم بعدم دراسة الكتاب السكندنافيين ومن إليهم من الكتاب الواقعيين ، فذلك لخشيتي على فنه الجيل الخلاب من أن يتأثر بهم ، ولأن الحكيم فى ذاته رجل مشبع بمذهب (المودرنزم) الذى يفتتن به افتتاناً لا حد له ويجعل منه الإطار الذهبى الذى يعلق لنا فيه ترجمته كاملة ، وصورته الحقيقية التى فطره عليها خالقه الذى لا نحب أن نسميه الآن !

إسمع إليه يقول فى كتابه « زهرة العمر » ص ٣٦ :

« ... انتهى رأيى إلى استحالة المضى فى روايتى التى كتبت منها قليلا وأنا فى هذه البيئة الأوربية العاصفة . هذه البيئة الحديثة وما يسود فيها من جو (المودرنزم) يُفسد حسن فهمى للأشياء ويحول دون تعرفى حقيقة شخصيتى فى الفن والأدب . أنا أحب المودرنزم ، وأخشى أن أقول لك إنى أقلد أساليبه على الرغم منى . وهذا بالذات ما يخيفنى ويدعونى إلى التريث حتى تهدأ عاصفة هذا الفن الحديث ، ونعرف إلى أى حد يستطيع أن يثبت إلى جانب الأساليب التى اعترف بها التاريخ . لقد شاهدت فى المسارح أخيراً قصصاً تمثيلية على طراز النزعة الحديثة ، مثل قصة au grand large ، كما شاهدت قصص ما قبل الحرب مثل ... واطلعت على رأى النقاد فى ذلك . أتدرى ما ذا فضل النقاد ؟ إنهم فضلوا قصص (ما قبل موجة المودرنزم) ورأوها هى الخليقة بالبقاء

واسمع إليه يقول أيضاً ص ٥٢ : « . . . إن خيالى مع الأسف ليس من نوع الخيال المثمر الذى خدم الشعراء والكتاب ، بل هو من نوع الخيال المهلك الذى أضاع فى وديانه السحيقة كثيراً من عاثرى الحظ الذين حسبوا أنفسهم شعراء زمناً طويلا وهم ليسوا بشعراء . ثم هنالك شىء آخر إخالك لم تلتفت إليه هو طبيعتى التى تميل إلى عدم الأخذ بما يأخذ به الناس جميعاً من أوضاع ، هرباً من الوقوع فى الابتذال وشغفاً جنونياً بالتميز والإغراب . فنى لبسى لا أرتدى كما يرتدى الآخرون ، ولا أدخن لأن التدخين عادة عامة . وربما دخنت لو انقطع الناس عن التدخين . لا أهدى إلى حبيبتى الأزهار الجميلة ولا العطور اللطيفة بل أهدى إليها ببغاء فى قفص . ولا أكتب إليها مباشرة عن الحب ، بل أتبع طرقا لن يتبعها عقلاء الناس . وتسألنى بعد ذلك لماذا أحب (المودرنزم) ؟ أليس لأنه أقرب الفنون إلى الخروج على التتبع المألوف ؟ لقد قالها أحد النقاد الحاقدين على هـذا الفن الحديث : « إن أهل هذا الفن يأتون كل سخيف مهجور بحجة حرية الابتداع والتفنن فى الابتكار » . الواقع أنى وجدت فى هؤلاء ، لا مأواى ومعقلى ، بل وجدت كل طبيعتى وما تنطوى عليه من حمق وجنون ، لقـد وجدت على الأقل سنداً وأساساً لرغبتى المحرقة فى الخروج على ما أسميه (المنطق العام) »

(١) زهرة العمر ص ١٢٦

واسمع إليه أيضاً يقول في ص ٩٧ : « . . . إنك تعلم من غير شك أن لي منطقاً خاصاً يشط بي أحياناً عما اعتاده الناس ، فإذا أنا في واد والناس في واد ، ينظرون إلي ويقولون : إما أنه أبله وإما أنه فطن . لا أذكر في حياتي أن الناس حكموا علي بغير الحكمين المتناقضين ، ففريق ومنه والدي يقول إنه أبله ، وفريق ومنه والدتي يقول إنه فطن ، ولم أسمع طول عمري حكماً وسطاً بين هذا وذاك . »

وبعد أن نعتذر للقراء من طول هذا الاقتباس الذي لم يكن منه بد ولا عنه معدى ، نشرع في الدفاع عن أديبنا المصري الكبير توفيق الحكيم ضد هذا الكاتب (المودرنست) توفيق الحكيم ، الذي وصف توفيقنا هذا الوصف المؤلم في تلك العبارة الصارمة المؤلمة ... فالصورة وإن تكن حقاً في جملتها ، إلا أنها مكتوبة في عبارات لا نحب أن يكتب بها توفيق الحكيم عن توفيق الحكيم . . . حقيقة إن توفيق الحكيم كاتب يحب المودرنزم لدرجة أنه لا يدخن لا لشيء معقول ، ولكن لأن الناس يدخنون . . . فإذا امتنعوا عن التدخين أقبل هو عليه ، ولو أنفق فيه جميع ثروته . وحقيقة إن هذا المودرنزم يحول بين توفيق الحكيم وبين تعرف حقيقة شخصيته في الفن والأدب ، بل هو يفسد حسن فهمه للأشياء . وحقيقة إن نقاد المسرح الفرنسي قد أجمعوا على تفضيل درامات ما قبل موجة المودرنزم ، وأنهم رأوها أجدر من غيرها بالبقاء ... فهل يسمح لنا الأستاذ توفيق الحكيم بأن نوضح له سؤالنا الذي وجهناه إليه فلم يفهمه على وجهه ، أو أنه التبس عليه ، حتى أسرع فأرسل إلينا خطابه تصحيحاً للموقف ، لأنه أيقن أننا شارعون في الكتابة عنه لا محالة ؟ إذن فاعلم أيها الأديب الذي أصبح علماً في الأدب المصري الحديث أن جميع آثارك الخمسة عشر هي من مذهب المودرنزم أو مذهب الشذوذ على العرف ، ومذهب (خالف تعرف !)، ثم هي مكتوبة لتقرأ[1] ولمجرد الترف الذهني ... هي فن للفن . ولولا أنني لم أعد أحب إزعاجك بتذكيرك بعداوتك المرأة — تلك العداوة المطلقة — لقلت لك إن أصل هذه العداوة ليس حباً خائباً كما يزعم أصدقاؤك أو كما تزعم أنت عند ما لطمك الحب على خدك الأيمن[2] ، بل إن أصلها هو هذا المودرنزم المضمر في مزاجك الخاص ، فكل الناس يحبون الكمثرى (ورحم الله حافظ إبراهيم !) ولكنك لهذا السبب تحب الحنظل ؛ وإذا عكسوا عكست ! وكل عباد الله يستحمون في الشتاء بالماء الدافيء ، ونحن نستنتج من المذهب الذي تأخذ نفسك به أنك تستحم ، بل تستنقع في الشتاء في حوض (بنيو) مملوء بالثلج والبَرَد ! لهذا ، لا لغيره ... سألناك لماذا لا تعنى بالتأليف للمسرح المصري كما نفهم هذا المسرح ، وكما يفهم المسرح برنرد شو ، وكما يفهمه إبسن وبجورنسن والنقاد المحترمون الذين لم تعجبهم الروايات التي ألفت على قواعد المودرنزم . والتي شهدتها فأغرمت بها ، لأنها صادفت هوى في فؤادك

هل عرفت إذن ماذا نقصد يا أحب الأدباء التمثيليين إلى نفسي ؟ وهل رأيت كيف أن خطابك لم ينطل علينا ؟

على أنني ضد السيد المحترم الوالد العزيز فيما ذهب إليه بشأنك . ولو فطن لعلم أنك أذكى البشر

وأستودعك الله إلى الحديث المقبل .

دريني خشبة

(١) ليهدأ الأستاذ توفيق فهذا هو رأيه أيضاً في كتابه ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٢) زهرة العمر ص ٢٥٥